وَسَيِّدُكَ مَا هُوَ إِلَّا لِصٌّ قَامَ بِسَرِقَةِ مَبْلَغٍ كَبِيرٍ مِنَ الْمَالِ مِنْ بَنْكِ إِنْجِلْتِرَا، وَلَقَدْ أُرْسِلْتُ لِاسْتِعَادَةِ هَذِهِ الْأَمْوَالِ، وَيَجِبُ عَلَيْكَ مُسَاعَدَتِي لِإِبْقَائِهِ فِي هونج كونج حَتَّى يُمْكِنَنِي إِلْقَاءُ الْقَبْضِ عَلَيْهِ.»

سَقَطَ فَمُ باسبارتو مَشْدُوهًا: «لِصٌّ! إِنَّهُ لَيْسَ لِصًّا! بَلْ إِنَّهُ أَشْرَفُ الرِّجَالِ!»

أَخْبَرَ فيكس باسبارتو أَنَّ مُوَاصَفَاتِ اللِّصِّ تَتَطَابَقُ تَمَامًا مَعَ مُوَاصَفَاتِ فيلياس فوج؛ فَاللِّصُّ مِنَ النُّبَلَاءِ مِثْلَ فيلياس فوج، وَكَذَلِكَ لَدَيْهِ أَمْوَالٌ طَائِلَةٌ مِثْلَ فيلياس، كَمَا أَنَّهُ فِي نَفْسِ الطُّوْلِ وَالْبِنْيَةِ، وَكَافَّةِ الْأَحْدَاثِ أَكَّدَتْ هَذَا.

ذَكَّرَ فيكس الْخَادِمَ بِمَعْرِفَتِهِ الْمَحْدُودَةِ بِرَئِيسِهِ؛ إِذْ إِنَّهُ — رَغْمَ كُلِّ شَيْءٍ — بَدَأَ الْعَمَلَ لَدَيْهِ فِي يَوْمِ مُغَادَرَتِهِمْ، ثُمَّ سَأَلَهُ فيكس مُجَدَّدًا: «الْآنَ، هَلْ سَتُسَاعِدُنِي فِي إِبْقَائِهِ فِي هونج كونج؟»

– «أَنَا أَرْفُضُ، فَسَيِّدِي رَجُلٌ نَبِيلٌ وَمُحْتَرَمٌ، وَلَمْ يَرْتَكِبْ تِلْكَ الْجَرِيمَةَ، أَنَا لَا أُصَدِّقُكَ وَسَأَرْحَلُ الْآنَ.»

– «أَتَمَنَّى أَنْ تُغَيِّرَ رَأْيَكَ.» وَبَيْنَمَا كَانَ باسبارتو يَهُمُّ بِالْمُغَادَرَةِ، أَوْمَأَ فيكس بِرَأْسِهِ لِلرَّجُلِ فِي الزَّاوِيَةِ الْمُظْلِمَةِ، وَفَجْأَةً تَسَلَّلَ الرَّجُلُ خَلْفَ باسبارتو وَضَرَبَهُ عَلَى رَأْسِهِ، فَسَقَطَ باسبارتو أَرْضًا! ثُمَّ أَوْمَأَ الرَّجُلُ لِفيكس قَبْلَ أَنْ يُسْرِعَ إِلَى الْخَارِجِ حَتَّى لَا يَرَاهُ أَحَدٌ.

وَقَالَ فيكس لِنَفْسِهِ وَهُوَ يَحْمِلُ الْخَادِمَ وَيَضَعُهُ عَلَى مَقْعَدٍ وَثِيرٍ: «أَخِيرًا! لَنْ يَعْرِفَ السَّيِّدُ فوج أَنَّ الْبَاخِرَةَ سَتُغَادِرُ مُبَكِّرًا، وَسَيَكُونُ مُجْبَرًا عَلَى الْبَقَاءِ فِي هونج كونج لِأُسْبُوعٍ آخَرَ!»

وَبِهَذَا تَرَكَ فيكس باسبارتو الْمِسْكِينَ فِي الْمَطْعَمِ وَهُوَ فَاقِدُ الْوَعْيِ.

كَانَ فيلياس وَعودا يَتَجَوَّلَانِ فِي هونج كونج لِشِرَاءِ مُؤَنٍ لِلرِّحْلَةِ الْبَحْرِيَّةِ الطَّوِيلَةِ الَّتِي تَنْتَظِرُهُمَا، وَلَمْ يَكُنْ أَيٌّ مِنْهُمَا يَعْلَمُ أَنَّ «كارناتيك» سَتُغَادِرُ فِي ذَلِكَ الْمَسَاءِ. وَقَضَيَا الْيَوْمَ فِي التَّسَوُّقِ وَتَنَاوُلِ الْغَدَاءِ ثُمَّ عَادَا إِلَى غُرْفَتَيْهِمَا لِلنَّوْمِ.

وَلَمْ يُلَاحِظَا غِيَابَ باسبارتو حَتَّى صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِي. ذَهَبَ فيلياس وَعودا إِلَى رَصِيفِ الْمِينَاءِ وَحْدَهُمَا، وَكَانَا يَأْمُلَانِ فِي الْعُثُورِ عَلَى الْخَادِمِ هُنَاكَ، لَكِنَّهُمَا عِنْدَمَا وَصَلَا،

لَمْ يَجِدَا سِوَى فيكس! قَالَ فيكس: «أَلَمْ تَكُنْ مُسَافِرًا عَلَى مَتْنِ الْبَاخِرَةِ «رانجون»؟ أَنَا صَدِيقُ خَادِمِكَ، كُنْتُ آمُلُ أَنْ أَجِدَهُ هُنَا.»

أَجَابَ فيلياس: «نَعَمْ، كُنْتُ عَلَى مَتْنِ «رانجون»، وَنَحْنُ الِاثْنَانِ أَيْضًا نَبْحَثُ عَنْ باسبارتو، إِنَّهُ لَمْ يَعُدْ إِلَى الْفُنْدُقِ لَيْلَةَ أَمْسِ.»

قَالَ فيكس: «هَذَا غَرِيبٌ حَقًّا!»

وَافَقَتْهُ عودا قَائِلَةً: «نَعَمْ، إِنَّهُ كَذَلِكَ، هَلْ تَعْتَقِدُ أَنَّهُ سَبَقَنَا عَلَى مَتْنِ الْبَاخِرَةِ «كارناتيك»؟»

قَالَ فيكس: «أَخْشَى أَنَّ لَدَيَّ بَعْضَ الْأَخْبَارِ السَّيِّئَةِ؛ فَقَدِ انْتَهَى إِصْلَاحُ الْبَاخِرَةِ «كارناتيك» أَمْسِ وَغَادَرَتْ مُبَكِّرًا. لَقَدْ فَاتَتْكُمُ الْبَاخِرَةُ، وَلَنْ تُبْحِرَ بَاخِرَةٌ أُخْرَى إِلَى يوكوهاما قَبْلَ أُسْبُوعٍ.»

فِي الْبِدَايَةِ نَظَرَ فيلياس إِلَى فيكس ثُمَّ إِلَى الْمِينَاءِ حَوْلَهُ وَقَالَ بِهُدُوءٍ: «حَسَنًا، يَجِبُ عَلَيْنَا فَقَطْ أَنْ نَأْخُذَ مَرْكَبًا آخَرَ. يَا سَيِّدُ فيكس، هَلْ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ تَظَلَّ مَعَ الْآنِسَةِ عودا لِلَحْظَةٍ؟»

أَوْمَأَ فيكس بِبُطْءٍ ثُمَّ رَاقَبَ فيلياس وَهُوَ يَسِيرُ بِسُرْعَةٍ مُبْتَعِدًا، وَتَسَلَّلَ الْقَلَقُ إِلَى نَفْسِهِ وَهُوَ يُفَكِّرُ: «مَرْكَبٌ آخَرُ. لَا يُمْكِنُهُ الْعُثُورُ عَلَى مَرْكَبٍ آخَرَ.»

وَامْتَدَّتِ اللَّحْظَةُ لِتُصْبِحَ دَقِيقَةً ثُمَّ سَاعَةً، ثُمَّ مَرَّتْ سَاعَةٌ أُخْرَى قَبْلَ أَنْ يَعُودَ فيلياس أَخِيرًا وَيَقُولَ لَهُمَا: «لَقَدْ فَعَلْتُهَا! لَقَدْ عَثَرْتُ عَلَى مَرْكَبٍ آخَرَ سَيَنْقُلُنَا إِلَى شانغهاي، وَمِنْ هُنَاكَ يُمْكِنُنَا اللِّحَاقُ بِالسَّفِينَةِ «كارناتيك» وَالذَّهَابُ إِلَى سان فرانسيسكو!»

ثُمَّ التَفَتَ إِلَى فيكس قَائِلًا: «أَنَا مُتَأَكِّدٌ مِنْ أَنَّ هُنَاكَ مُتَّسَعًا لَكَ، إِذَا كُنْتَ تُحِبُّ أَنْ تَنْضَمَّ إِلَيْنَا.»

قَالَ فيكس — وَهُوَ يَتَصَنَّعُ ابْتِسَامَةً زَائِفَةً: «شُكْرًا لَكَ يَا سَيِّدِي.»

قَالَ فيلياس: «حَسَنًا، سَنُغَادِرُ فِي غُضُونِ نِصْفِ سَاعَةٍ.»

قَالَتْ عودا: «وَلَكِنَّ باسبارتو، مَاذَا عَنْهُ؟ يَجِبُ أَنْ نَعْثُرَ عَلَيْهِ.»

قَالَ فيلياس: «سَنَفْعَلُ مَا بِوُسْعِنَا قَبْلَ أَنْ نُغَادِرَ يَا عودا.»

هُرِعَ فيكس لِيَحْزِمَ أَمْتِعَتَهُ حَتَّى يُغَادِرَ مَعَهُمَا، وَفِي هَذِهِ الْأَثْنَاءِ، ذَهَبَ فيلياس وعودا إِلَى قِسْمِ الشُّرْطَةِ فِي مُحَاوَلَةٍ لِلْعُثُورِ عَلَى باسبارتو، وَتَرَكَا مَبْلَغًا مِنَ الْمَالِ مَعَ الشُّرْطَةِ لِيَتَمَكَّنُوا مِنَ الْبَحْثِ عَنْ باسبارتو.

وَكَانَ الْمَرْكَبُ الَّذِي اسْتَأْجَرَهُ فيلياس يُدْعَى «تانكادير»، وَقُبْطَانُهُ يُدْعَى جون بانسبي، وَطَاقَمُهُ مُكَوَّنٌ مِنْ أَرْبَعَةِ بَحَّارَةٍ أَشِدَّاءَ. وَعِنْدَمَا صَعِدَ عودا وفيلياس عَلَى مَتْنِ الْمَرْكَبِ، انْدَهَشَا لِأَنَّ فيكس قَدْ سَبَقَهُمَا إِلَى سَطْحِ الْمَرْكَبِ بِالْفِعْلِ.

وَقَالَ فيلياس: «أَعْتَذِرُ عَنْ صِغَرِ حَجْمِ الْكَبَائِنِ، وَلَكِنْ عَلَى الْأَقَلِّ لَيْسَ عَلَيْنَا الِانْتِظَارُ أُسْبُوعًا آخَرَ لِمُتَابَعَةِ الرِّحْلَةِ!»

انْحَنَى فيكس وَلَمْ يَتَفَوَّهْ بِكَلِمَةٍ، وَفَكَّرَ قَائِلًا: «إِنَّهُ رَجُلٌ نَبِيلٌ، عَلَيَّ الِاعْتِرَافُ بِذَلِكَ.»

كَانَ ذَلِكَ فِي بِدَايَةِ شَهْرِ نُوفَمْبِرَ، مِمَّا يَعْنِي أَنَّ الْمُسَافِرِينَ قَدْ بَدَءُوا رِحْلَتَهُمْ مُنْذُ أَكْثَرَ مِنْ سِتَّةٍ وَثَلَاثِينَ يَوْمًا. وَكَانَتْ بِحَارُ الصِّينِ هَائِجَةً وَالرِّيَاحُ قَوِيَّةً، وَكَانَتْ «تانكادير» تَشُقُّ طَرِيقَهَا بِسُرْعَةٍ، وَكَانَ الْقُبْطَانُ بانسبي يَعْلَمُ أَنَّ لَدَيْهِ سَفِينَةً قَوِيَّةً، وَيَبْذُلُ قُصَارَى جُهْدِهِ لِجَعْلِهَا تَتَحَرَّكُ بِأَقْصَى سُرْعَةٍ مُمْكِنَةٍ لَهَا.

وَقَفَ فيلياس فوج عَلَى ظَهْرِ السَّفِينَةِ يُرَاقِبُ الْأَمْوَاجَ الْعَاتِيَةَ الَّتِي تَزْدَادُ ارْتِفَاعًا، وَكَانَ الْمَرْكَبُ يَهْتَزُّ بِشِدَّةٍ إِلَى الْأَمَامِ وَالْخَلْفِ، وَلَكِنَّ فيلياس لَمْ يَسْقُطْ قَطُّ، فَكَانَتْ لَدَيْهِ قُدْرَةٌ هَائِلَةٌ عَلَى السَّيْرِ عَلَى سَطْحِ الْمَرْكَبِ، وَكَانَتِ الْأَشْرِعَةُ الْبَيْضَاءُ الضَّخْمَةُ تَخْفِقُ فِي السَّمَاءِ. وَجَلَسَتْ عودا عَلَى كُرْسِيٍّ وَتَشَبَّثَتْ خَوْفًا عَلَى حَيَاتِهَا.

أَمَّا فيكس، فَقَدْ قَبَعَ فِي الْكَابِينَةِ، وَكَانَ حَزِينًا لِأَنَّ عَلَيْهِ اللِّحَاقَ بِفيلياس إِلَى أَمْرِيكَا، وَلَكِنَّهُ قَدْ قَطَعَ وَعْدًا عَلَى نَفْسِهِ أَنَّهُ لَنْ يَسْتَسْلِمَ أَبَدًا، بَلْ سَيَقُومُ بِوَاجِبِهِ لِلتَّأَكُّدِ مِنَ الْقَبْضِ عَلَى اللِّصِّ. وَبِالرَّغْمِ مِنَ الْمُعَامَلَةِ الطَّيِّبَةِ الَّتِي تَلَقَّاهَا فيكس عَلَى مَتْنِ الْقَارِبِ كَانَ عَلَيْهِ التَّرْكِيزُ عَلَى وَاجِبِهِ؛ فَلَمْ يَكُنْ سُلُوكُ فيلياس النَّبِيلُ الْمِثَالِيُّ ذَا أَهَمِّيَّةٍ، فَهُوَ مُجْرِمٌ، وَكَانَتْ مَهَمَّةُ فيكس هِيَ الْقَبْضَ عَلَيْهِ. وَمَعَ ذَلِكَ، لَمْ يَكُنْ سَعِيدًا حِيَالَ رَفْضِ فيلياس أَنْ يَأْخُذَ أَيَّ أَمْوَالٍ مِنْهُ، سَوَاءٌ مُقَابِلَ الطَّعَامِ أَوْ رِحْلَةِ السَّفِينَةِ. وَعِنْدَمَا سَأَلَ فيكس عَنِ السَّبَبِ، أَجَابَ فيلياس بِوُضُوحٍ وَسُرْعَةٍ أَنَّهُ أَمْرٌ لَا يَسْتَحِقُّ الْحَدِيثَ عَنْهُ، وَأَنَّ الرِّحْلَةَ جُزْءٌ مِنْ «نَفَقَاتِهِ الْعَامَّةِ».

فَكَّرَ فيكس: «إِنَّهُ بِالطَّبْعِ يَمْلِكُ مَالًا لِأَنَّهُ لِصٌّ!»

فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ، قَطَعَتِ السَّفِينَةُ أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ مِيلٍ، وَكَانَ فيلياس سَعِيدًا بِهَذَا التَّقَدُّمِ، كَمَا ارْتَفَعَتْ مَعْنَوِيَّاتُ الْقُبْطَانِ إِلَى السَّمَاءِ، وَكَانَ عَلَى يَقِينٍ أَنَّهُمْ سَيَصِلُونَ إِلَى شانغهاي فِي الْوَقْتِ الْمُحَدَّدِ لِيَلْحَقَ فيلياس بِالْبَاخِرَةِ «كارناتيك».

لَكِنْ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ تَغَيَّرَ كُلُّ شَيْءٍ؛ إِذْ صَاحَبَ فَجْرَ ذَلِكَ الْيَوْمِ سَمَاءٌ مُظْلِمَةٌ وَمُلَبَّدَةٌ بِالْغُيُومِ.

وَقَفَ الْقُبْطَانُ عَلَى سَطْحِ السَّفِينَةِ بِجَانِبِ فيلياس، وَتَأَمَّلَا مَعًا السُّحُبَ الْكَثِيفَةَ الَّتِي تَتَكَوَّنُ خَلْفَ الْقَارِبِ.

قَالَ الْقُبْطَانُ بانسبي: «أَعْتَقِدُ أَنَّنَا سَنُوَاجِهُ عَاصِفَةً عَاتِيَةً يَا سَيِّدِي.»

قَالَ فيلياس: «أَنَا أَيْضًا أَعْتَقِدُ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ الرِّيَاحَ تَهُبُّ فِي الِاتِّجَاهِ الصَّحِيحِ لِمُسَاعَدَتِنَا فِي الْمُضِيِّ قُدُمًا.»

نَظَرَ الْقُبْطَانُ إِلَى رَاكِبِهِ، وَقَالَ: «إِذَنْ، هَلْ تَرْغَبُ فِي الِاسْتِمْرَارِ فِي الْإِبْحَارِ عَلَى هَذَا الْمِنْوَالِ؟»

قَالَ فيلياس: «بِالطَّبْعِ!»

تَفَحَّصَ الْقُبْطَانُ فيلياس فوج بِنَظْرَةٍ طَوِيلَةٍ وَلَاحَظَ بِهُدُوءٍ أَنَّهُ كَانَ جَادًّا فِعْلًا.

أَخَذَ الْمَرْكَبُ يَتَمَايَلُ وَيَتَرَنَّحُ، لَكِنَّهُ حَافَظَ عَلَى مَسَارِهِ إِلَى شانغهاي، رَغْمَ أَنَّ إِبْطَاءَ الْمَرْكَبِ وَالتَّوَقُّفَ فِي أَقْرَبِ مِينَاءٍ كَانَ أَكْثَرَ أَمَانًا. تَحَوَّلَ النَّهَارُ إِلَى لَيْلٍ، وَاللَّيْلُ إِلَى نَهَارٍ، وَالْعَاصِفَةُ تَثُورُ مِنْ حَوْلِهِمْ، وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ أَيُّ قَوَارِبَ أُخْرَى عَلَى مَرْمَى الْبَصَرِ، فَقَدْ كَانَتْ «تانكادير» تُبْحِرُ وَحْدَهَا.

وَبِحُلُولِ ظَهِيرَةِ الْيَوْمِ الثَّانِي، هَدَأَتِ الْعَاصِفَةُ أَخِيرًا، وَلَمْ يَكُنْ لَدَيْهِمْ سِوَى سِتِّ سَاعَاتٍ فَقَطْ لِلْوُصُولِ إِلَى وِجْهَتِهِمْ أَوِ الْمُخَاطَرَةِ بِعَدَمِ اللَّحَاقِ بِالْبَاخِرَةِ. وَفَجْأَةً اخْتَفَتِ الرِّيَاحُ تَمَامًا! وَلَمْ يَعْرِفْ فيلياس وَمُرَافِقُوهُ كَيْفَ اسْتَطَاعَ الْقُبْطَانُ الْمَاهِرُ وَطَاقَمُ عَمَلِهِ الْحِفَاظَ عَلَى سُرْعَةِ الْمَرْكَبِ، لَكِنَّهُمْ نَجَحُوا فِي الْحِفَاظِ عَلَى سُرْعَةِ الْمَرْكَبِ وَهُوَ يَشُقُّ طَرِيقَهُ فِي الْبَحْرِ.

كَانُوا عَلَى بُعْدِ ثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ فَقَطْ مِنْ شانغهاي عِنْدَمَا رَأَى فيلياس قُمْعًا طَوِيلًا أَسْوَدَ اللَّوْنِ مِنَ الْبُخَارِ أَمَامَهُمْ. إِنَّهَا «كارناتيك» تُغَادِرُ إِلَى «يوكوهاما»، حَيْثُ كَانَتْ سَتَتَوَقَّفُ قَبْلَ تَوَجُّهِهَا إِلَى «سان فرانسيسكو»!

قَالَ فيلياس فوج: «أَرْسِلْ لَهَا إِشَارَةً!»

كَانَ عَلَى مَتْنِ «تانكادير» مِدْفَعٌ نُحَاسِيٌّ صَغِيرٌ، وَكَانَ مِنَ الْمُفْتَرَضِ اسْتِخْدَامُهُ فِي نِدَاءِ الِاسْتِغَاثَةِ، فَلَقَّمَهُ الْبَحَّارَةُ الْقَذِيفَةَ وَأَشْعَلُوا قَاعِدَتَهُ لِإِطْلَاقِهِ.

صَاحَ فيلياس: «أَطْلِقْ!» دَوَّى إِطْلَاقُ الْمِدْفَعِ فِي الْهَوَاءِ، وَقَدْ أَثَارَ دَوِيُّهُ انْتِبَاهَ الْبَاخِرَةِ الَّتِي غَيَّرَتْ مَسَارَهَا لِمُقَابَلَةِ «تانكادير». وهكذا اسْتَطَاعَ فيلياس فوج وعودا الصُّعُودَ عَلَى مَتْنِ «كارناتيك» وَالْعَوْدَةَ إِلَى الْمَسَارِ الصَّحِيحِ! وَلَمْ يَسْتَطِعْ فيكس تَصْدِيقَ حُسْنِ حَظِّهِمَا.

الفصل الثاني عشر

باسبارتو يُوَاصِلُ الرِّحْلَةَ وَحِيدًا، وَيَنْضَمُّ لِفَرِيقِ «لونج نوزز»

غَادَرَتِ الْبَاخِرَةُ «كارناتيك» هونج كونج فِي مَوْعِدِهَا الْمُحَدَّدِ، وَلَكِنْ بِغُرْفَتَيْنِ فَارِغَتَيْنِ، إِنَّهُمَا غُرْفَتَا فيلياس فوج وعودا. وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي، تَعَثَّرَ رَاكِبٌ ذُو عَيْنَيْنِ غَائِمَتَيْنِ وَشَعْرٍ أَشْعَثَ خَارِجَ كَابِينَتِهِ وَتَلَمَّسَ طَرِيقَهُ إِلَى سَطْحِ الْبَاخِرَةِ؛ إِنَّهُ باسبارتو!

كَانَ باسبارتو قَدِ اسْتَيْقَظَ وَهُوَ لَا يَزَالُ يُعَانِي دُوَارًا مِنْ أَثَرِ الضَّرْبَةِ عَلَى رَأْسِهِ بَعْدَ ثَلَاثِ سَاعَاتٍ مِنْ رَحِيلِ فيكس فِي ذَلِكَ الْمَطْعَمِ الْكَئِيبِ، وَصَاحَ: «كارناتيك! كارناتيك!» كَأَنَّمَا أَدْرَكَ أَيْنَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ، وَبِالْكَادِ اسْتَطَاعَ الْوُقُوفَ وَسَحَبَ نَفْسَهُ وَتَعَثَّرَ حَتَّى وَصَلَ إِلَى الْبَاخِرَةِ، ثُمَّ سَقَطَ عَلَى مَتْنِ الْبَاخِرَةِ وَهِيَ عَلَى وَشْكِ الرَّحِيلِ مِنَ الْمِينَاءِ.

فَأَشْفَقَ عَلَيْهِ اثْنَانِ مِنْ طَاقَمِ الْبَاخِرَةِ وَحَمَلَاهُ إِلَى كَابِينَتِهِ، وَلَمْ يَسْتَيْقِظْ باسبارتو إِلَّا فِي مُنْتَصَفِ الْيَوْمِ التَّالِي.

كَانَ يُفَكِّرُ قَلِقًا: «مَاذَا سَيَقُولُ السَّيِّدُ فوج عَنِّي عِنْدَمَا يَرَانِي هَكَذَا؟ مَا الَّذِي حَدَثَ لِي؟ عَلَى الْأَقَلِّ تَمَكَّنْتُ مِنَ الْوُصُولِ إِلَى الْبَاخِرَةِ.»

نَهَضَ باسبارتو وَبَدَأَ يَسْتَكْشِفُ الْبَاخِرَةَ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَرَ أَيَّ شَخْصٍ يَبْدُو مِثْلَ فيلياس فوج أَوْ عودا، فَذَهَبَ إِلَى غُرْفَةِ الطَّعَامِ لِيَرَى مَا إِذَا كَانَ أَيٌّ مِنْهُمَا هُنَاكَ، لَكِنَّهُمَا لَمْ يَكُونَا هُنَاكَ.

وَأَخِيرًا، سَأَلَ باسبارتو مُسَافِرًا آخَرَ عَلَى مَتْنِ الْبَاخِرَةِ إِذَا كَانَ يَعْرِفُ أَيْنَ يُمْكِنُهُ الْعُثُورُ عَلَى فيلياس فوج.

فَأَجَابَهُ الْمُسَافِرُ: «لَا يُوجَدُ أَحَدٌ بِهَذَا الِاسْمِ عَلَى ظَهْرِ الْبَاخِرَةِ.»

سَأَلَ باسبارتو: «هَلْ أَنَا عَلَى مَتْنِ الْبَاخِرَةِ «كارناتيك»؟»

– «نَعَمْ.»

– «فِي الطَّرِيقِ إِلَى «يوكوهاما»؟»

– «نَعَمْ.»

سَقَطَ باسبارتو عَلَى مَقْعَدٍ وَكَأَنَّمَا أَصَابَتْهُ صَاعِقَةٌ، وَبَدَأَ يَسْتَرْجِعُ كُلَّ الْأَحْدَاثِ! لَا بُدَّ وَأَنَّ السَّيِّدَ قَدْ فَاتَتْهُ الْبَاخِرَةُ. كَانَ باسبارتو الْآنَ فِي طَرِيقِهِ إِلَى الْيَابَانِ وَهُوَ لَا يَمْلِكُ نُقُودًا عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَلَكِنْ كَانَتِ الرِّحْلَةُ سَتَسْتَغْرِقُ خَمْسَةً إِلَى سِتَّةِ أَيَّامٍ؛ لِذَا فَعَلَى الْأَقَلِّ سَيَكُونُ أَمَامَهُ بَعْضُ الْوَقْتِ لِيُفَكِّرَ مَاذَا سَيَفْعَلُ.

عِنْدَمَا رَسَتِ السَّفِينَةُ فِي يوكوهاما، نَزَلَ باسبارتو بِبُطْءٍ مِنْ عَلَى مَتْنِ السَّفِينَةِ إِلَى الشَّاطِئِ، وَلَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ شَيْءٌ يُرْشِدُهُ سِوَى قَدَرِهِ وَهُوَ يَجُوبُ شَوَارِعَ الْمَدِينَةِ الْيَابَانِيَّةِ. فِي الْبِدَايَةِ، تَفَقَّدَ الْجُزْءَ الْأُورُوبِّيَ مِنَ الْمَدِينَةِ حَيْثُ وَجَدَ الْعَدِيدَ مِنَ التُّجَّارِ يَبِيعُونَ بَضَائِعَهُمْ. ثُمَّ تَوَجَّهَ إِلَى الْقُنْصُلِيَّتَيْنِ الْفَرَنْسِيَّةِ وَالْإِنْجلِيزِيَّةِ لِيَرَى إِنْ كَانَ لَدَيْهِمَا أَيُّ رَسَائِلَ مِنْ فيلياس فوج، وَلَكِنْ لَمْ يُحَالِفْهُ الْحَظُّ، فَمَضَى قُدُمًا فِي اسْتِكْشَافِ الْمَدِينَةِ.

وَسَأَلَ باسبارتو نَفْسَهُ وَهُوَ يَتَجَوَّلُ فِي شَوَارِعِ الْمَدِينَةِ الْمُزْدَحِمَةِ: «مَاذَا سَأَفْعَلُ لِلْحُصُولِ عَلَى الطَّعَامِ؟» وَأَخَذَ يَتَفَحَّصُ نَوَافِذَ الْمَحَلَّاتِ الثَّرِيَّةِ وَالْعَجِيبَةِ، كَمَا رَأَى مَقَاهِيَ وَتَمَنَّى لَوْ كَانَ لَدَيْهِ الْمَالُ لِيَجْلِسَ فِي إِحْدَاهَا. ظَلَّ باسبارتو جَائِعًا لِفَتْرَةٍ طَوِيلَةٍ مِنْ نَهَارِ وَلَيْلِ الْيَوْمِ الْأَوَّلِ وَهُوَ يَتَجَوَّلُ فِي أَرْجَاءِ الْمَدِينَةِ، ظَلَّ يَمْشِي وَيَمْشِي، وَلَمْ يَحْصُلْ عَلَى قِسْطٍ مِنَ الرَّاحَةِ قَطُّ، حَتَّى عِنْدَمَا حَلَّ الْمَسَاءُ.

وَفِي صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِي، كَانَ باسبارتو الْمِسْكِينُ يُدْرِكُ أَنَّهُ يَحْتَاجُ لِيَأْكُلَ قَرِيبًا. كَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يَبِيعَ سَاعَتَهُ وَلَكِنَّهَا كَانَتْ عَزِيزَةً جِدًّا بِالنِّسْبَةِ لَهُ، وَلَمْ يَكُنْ يَرْغَبُ فِي فِرَاقِهَا. وَبَعْدَ الْكَثِيرِ مِنَ التَّفْكِيرِ، قَرَّرَ أَنْ يُحَاوِلَ الْغِنَاءَ مِنْ أَجْلِ الْحُصُولِ عَلَى الطَّعَامِ.

ثُمَّ فَكَّرَ: «لَكِنَّنِي مُتَأَنِّقٌ بِدَرَجَةٍ لَا تُنَاسِبُ الْغِنَاءَ فِي الشَّارِعِ. نَعَمْ، سَوْفَ أُقَايِضُ مَلَابِسِي بِمَلَابِسَ ذَاتِ طَابَعٍ يَابَانِيٍّ.»

خَرَجَ باسبارتو مِنْ عِنْدِ تَاجِرِ الْمَلَابِسِ بِبَعْضِ الْقِطَعِ الْفِضِّيَّةِ فِي يَدِهِ وَمَلَابِسَ يَابَانِيَّةٍ جَدِيدَةٍ، فَكَانَ يَرْتَدِي ثَوْبًا طَوِيلًا وَعِمَامَةً ذَاتَ جَانِبٍ وَاحِدٍ.

وَفَكَّرَ فِي نَفْسِهِ: «يُمْكِنُنِي التَّظَاهُرُ بِأَنَّنِي فِي مِهْرَجَانٍ!»

دَخَلَ باسبارتو فِي أَوَّلِ مَقْهًى قَابَلَهُ، وَطَلَبَ بَعْضًا مِنَ الْأُرْزِ وَالدَّجَاجِ فَوْرَ جُلُوسِهِ، وَالْتَهَمَ طَعَامَهُ بِسُرْعَةٍ شَدِيدَةٍ. وَأَثْنَاءَ تَنَاوُلِ الطَّعَامِ فَكَّرَ باسبارتو أَنَّهُ يُمْكِنُهُ الْعُثُورُ عَلَى وَظِيفَةٍ عَلَى مَتْنِ بَاخِرَةٍ مُتَّجِهَةٍ إِلَى أَمْرِيكَا بَدَلًا مِنَ الْغِنَاءِ مِنْ أَجْلِ الطَّعَامِ أَوِ الْمَالِ.

– «عَلَى الْأَقَلِّ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ سَيَكُونُ لَدَيَّ أَمَلٌ فِي الْعُثُورِ عَلَى سَيِّدِي.»

عَادَ باسبارتو إِلَى الْمَرْسَى وَهُوَ يُفَكِّرُ: «كَيْفَ سَأَجِدُ وَظِيفَةً؟ مَنْ سَيَتْرُكُنِي أَصْعَدُ عَلَى مَتْنِ الْبَاخِرَةِ بِهَذِهِ الْمَلَابِسِ؟» كَانَتْ هَذِهِ الْأَسْئِلَةُ وَغَيْرُهَا تَدُورُ فِي ذِهْنِهِ عِنْدَمَا صَادَفَ مُهَرِّجًا يَحْمِلُ لَوْحَةً ضَخْمَةً كُتِبَ عَلَيْهَا:

الْفِرْقَةُ الْبَهْلَوَانِيَّةُ
يُقَدِّمُهَا
الْمُحْتَرَمُ
ويليام باتولكار
لَا تُفَوِّتُوا آخِرَ
عَرْضٍ لِفِرْقَةِ
«لونج نوزز» «لونج نوزز»
سَنَتَّجِهُ إِلَى
«أَمْرِيكَا»!

قَالَ باسبارتو: «أَمْرِيكَا! هَذَا بِالضَّبْطِ مَا أَحْتَاجُ إِلَيْهِ!»

لَحِقَ باسبارتو بِالْمُهَرِّجِ حَتَّى وَسْطِ الْمَدِينَةِ، وَبَعْدَ خَمْسِينَ دَقِيقَةً، كَانَ باسبارتو يَقِفُ أَمَامَ كَابِينَةٍ كَبِيرَةٍ مُزَيَّنَةٍ بِالشَّرَائِطِ وَمَرْسُومٍ عَلَيْهَا بَهْلَوَانَاتٌ. دَخَلَ باسبارتو إِلَى الْكَابِينَةِ وَسَأَلَ عَنِ السَّيِّدِ باتولكار، الَّذِي سُرْعَانَ مَا خَرَجَ لِيُقَابِلَهُ.

سَأَلَ باتولكار: «مَاذَا تُرِيدُ؟»

فَأَجَابَهُ باسبارتو: «أَنَا لَاعِبُ جُمْبَازٍ وَمُطْرِبٌ وَمُمَثِّلٌ يَا سَيِّدِي، فَهَلْ تَحْتَاجُ إِلَى أَيٍّ مِنْ مَهَارَاتِي؟»

سَأَلَهُ السَّيِّدُ باتولكار: «هَلْ أَنْتَ فَرَنْسِيٌّ؟»

قَالَ باسبارتو: «نَعَمْ، أَنَا مِنْ بَارِيسَ، وَلَكِنَّنِي أَعِيشُ فِي إِنْجِلْتِرَا مُنْذُ سَنَوَاتٍ طَوِيلَةٍ، وَالْآنَ، أَرْغَبُ فِي زِيَارَةِ أَمْرِيكَا.»

– «هَلْ أَنْتَ قَوِيُّ الْبِنْيَةِ؟ هَلْ تَسْتَطِيعُ الْغِنَاءَ وَأَنْتَ تَقِفُ عَلَى رَأْسِكَ، وَعَلَى قَدَمِكَ الْيُمْنَى نَحْلَةٌ دَوَّارَةٌ وَعَلَى قَدَمِكَ الْيُسْرَى سَيْفٌ مُتَوَازِنٌ؟»

أَجَابَ باسبارتو: «هَاهْ! أَعْتَقِدُ ذَلِكَ!» وَتَذَكَّرَ كَيْفَ كَانَ رَشِيقًا فِي صِغَرِهِ، لَقَدْ كَانَ بَهْلَوَانًا!

– «حَسَنًا، هَذَا جَيِّدٌ بِالنِّسْبَةِ لِي، تَمَّ تَعْيِينُكَ!» ثُمَّ نَظَرَ إِلَى باسبارتو وَقَالَ: «وَلَكِنْ عَلَيْكَ الْعُثُورُ عَلَى مَلَابِسَ نِصْفِ لَائِقَةٍ لِتَرْتَدِيَهَا؛ فَالزِّيُّ الَّذِي تَلْبَسُهُ يَبْدُو سَخِيفًا.»

شَعَرَ باسبارتو بِسَعَادَةٍ غَامِرَةٍ لِأَنَّهُ نَجَحَ أَخِيرًا فِي الْحُصُولِ عَلَى وَظِيفَةٍ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ خَادِمَ السَّيِّدَ فوج، فَعَلَى الْأَقَلِّ أَصْبَحَ فِي إِمْكَانِهِ الْوُصُولُ إِلَى أَمْرِيكَا وَالْعُثُورُ عَلَيْهِ هُنَاكَ. لَقَدْ حُسِمَ الْأَمْرُ؛ فَسَيَنْضَمُّ إِلَى فَرِيقِ «لونج نوزز» الَّذِينَ يَقُومُونَ بِعَرْضٍ خَاصٍّ دَاخِلَ الْفِرْقَةِ بِتَكْوِينِ هَرَمٍ بَشَرِيٍّ، وَكَانَ هَذَا الْعَرْضُ الْمُذْهِلُ هُوَ الْفَصْلُ الْخِتَامِيُّ فِي كُلِّ عَرْضٍ.

بَعْدَ الظَّهِيرَةِ، بَدَأَتِ الْحُشُودُ فِي التَّجَمُّعِ؛ فَاكْتَظَّتِ الْمُدَرَّجَاتُ بِأُنَاسٍ مِنْ مُخْتَلِفِ الْأَشْكَالِ وَالْأَحْجَامِ وَالْأَلْوَانِ. وَحَضَرَ كَذَلِكَ الْمُوسِيقِيُّونَ الَّذِينَ كَانُوا يَعْزِفُونَ بِالْأَجْرَاسِ الْقُرْصِيَّةِ وَالطُّبُولِ الْأَفْرِيقِيَّةِ وَالنَّايِ وَالطُّبُولِ وَالدُّفُوفِ.

قَفَزَ الْمُهَرِّجُونَ لِبَدْءِ الْعَرْضِ، وَقَامُوا بِتَنْفِيذِ حَرَكَاتٍ مُبْهِرَةٍ مِنَ التَّدَحْرُجِ وَالْقَفْزِ وَالِانْدِفَاعِ؛ مِمَّا أَسْعَدَ الْحَشْدَ كَثِيرًا. كَانَ هُنَاكَ بَهْلَوَانٌ يَرْمِي الشُّمُوعَ مُشْتَعِلَةً فِي الْهَوَاءِ! وَكَانَ يُطْفِئُهَا عِنْدَمَا تَمُرُّ بِجَانِبِ فَمِهِ وَيُضِيئُهَا مَرَّةً أُخْرَى دُونَ أَنْ يَسْقُطَ أَيٌّ مِنْهَا، وَمَشَى السَّائِرُونَ عَلَى الْحِبَالِ عَلَى سِلْكٍ رَفِيعٍ عَبْرَ الْمَسْرَحِ، وَكَانُوا يَدُورُونَ وَيَقْفِزُونَ بِدُونِ أَنْ يَسْقُطُوا.

وَرَغْمَ كُلِّ ذَلِكَ، كَانَتِ الْأَنْظَارُ مُتَّجِهَةً إِلَى عَرْضِ «لونج نوزز»، فَكَانُوا يَرْتَدُونَ مِثْلَ الْإِلَهِ الْقَدِيمِ «تنجو» الَّذِي كَانَ لَدَيْهِ أَنْفٌ طَوِيلٌ لِلْغَايَةِ، كَمَا كَانُوا يَضَعُونَ أَجْنِحَةً رَائِعَةً، وَكَانَتْ أُنُوفُهُمْ مَصْنُوعَةً مِنَ الْبَامْبُو وَطُولُهَا خَمْسَةٌ وَسِتَّةٌ وَحَتَّى عَشْرِ أَقْدَامٍ! لَكِنْ كَانَ بَعْضُ هَذِهِ الْأُنُوفِ مُسْتَقِيمًا وَالْآخَرُ مَعْقُوفًا وَبَعْضُهَا بِهِ بُثُورٌ مُضْحِكَةٌ. تَدَحْرَجَ الْمُهَرِّجُونَ وَتَمَايَلُوا وَأَدَّوْا حَرَكَاتٍ بَهْلَوَانِيَّةً وَهُمْ يَضَعُونَ تِلْكَ الْأُنُوفَ الطَّوِيلَةَ عَلَى وُجُوهِهِمْ، كَانَ عَرْضًا لَا يُصَدَّقُ!

باسبارتو يُوَاصِلُ الرِّحْلَةَ وَحِيدًا ...

أَعْلَنَ السَّيِّدُ باتولكار عَنْ آخِرِ الْعُرُوضِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ؛ أَلَا وَهُوَ عَرْضُ الْهَرَمِ الْبَشَرِيِّ، وَلَكِنَّ مُؤَدِّي الْعَرْضِ لَنْ يَتَسَلَّقُوا عَلَى ظُهُورِ بَعْضِهِمُ الْبَعْضِ، وَإِنَّمَا سَيُحَافِظُونَ عَلَى اتِّزَانِهِمْ عَلَى أُنُوفِ بَعْضِهِمُ الْبَعْضِ! وَوَقَفَ باسبارتو فِي وَسْطِ الْحَلْبَةِ وَعَلَى وَجْهِهِ أَنْفٌ طُولُهُ سِتُّ أَقْدَامٍ، وَعَلَى ظَهْرِهِ أَجْنِحَةٌ مُتَعَدِّدَةُ الْأَلْوَانِ.

فَكَّرَ باسبارتو وَهُوَ يَتَسَلَّقُ أَعْلَى أَحَدِ الْأُنُوفِ وَيَسْعَى جَاهِدًا لِلْحِفَاظِ عَلَى اتِّزَانِهِ: «عَلَى الْأَقَلِّ سَأَحْصُلُ عَلَى عَشَاءِ اللَّيْلَةِ.»

وَلَكِنْ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ، وَبِنَفْسِ السُّرْعَةِ الَّتِي تَشَكَّلَ فِيهَا الْهَرَمُ، انْهَارَ الْجَمِيعُ أَرْضًا وَتَحَطَّمَتْ كُلُّ الْأُنُوفِ حَوْلَهُمْ.

وَصَاحَ باسبارتو فِي تَعَجُّبٍ: «سَيِّدِي! أَنْتَ هُنَا!» كَانَ ذَلِكَ صَحِيحًا! كَانَ فيلياس فوج يَجْلِسُ بَيْنَ الْجُمْهُورِ، فَقَدْ مَرَّ هُوَ وعودا بِلَافِتَاتِ الْعَرْضِ وَهُمَا يَسْتَكْشِفَانِ الْمَدِينَةَ وَقَرَّرَا الدُّخُولَ وَمُشَاهَدَةَ الْعَرْضِ.

فَقَالَ فيلياس: «هَلْ هَذَا أَنْتَ يَا باسبارتو؟»

– «نَعَمْ! أَنَا هُنَا! أَنَا هُنَا!»

فَقَالَ فيلياس: «حَسَنًا، هيَّا بِنَا إِلَى الْبَاخِرَةِ أَيُّهَا الشَّابُّ!»

غَادَرَ فيلياس وَعودا وَباسبارتو الْمَسْرَحَ مُتَّجِهِينَ إِلَى الْخَارِجِ، فَتَعَقَّبَهُمُ السَّيِّدُ باتولكار إِلَى الْخَارِجِ وَهُوَ يَصْرُخُ قَائِلًا إِنَّ باسبارتو قَدْ دَمَّرَ عَرْضَهُ! فَأَعْطَاهُ السَّيِّدُ فوج بِكَرَمٍ بَعْضَ النُّقُودِ لِإِصْلَاحِ مَا قَدْ تَلِفَ، وَشَقَّ الثَّلَاثَةُ طَرِيقَهُمْ إِلَى الْبَاخِرَةِ الْمُتَّجِهَةِ إِلَى أَمْرِيكَا. كَانَ هُنَاكَ شَيْءٌ وَاحِدٌ فَقَطْ؛ لَقَدْ نَسِيَ باسبارتو أَنْ يَخْلَعَ أَنْفَهُ، فَظَلَّ يَضَعُ ذَلِكَ الْأَنْفَ وَالْأَجْنِحَةَ وَهُوَ يَصْعَدُ عَلَى مَتْنِ السَّفِينَةِ الَّتِي تَحْمِلُ اسْمَ «جنرال جرانت»!

13

الفصل الثالث عشر

السَّيِّدُ فوج وَفَرِيقُهُ يَعْبُرُونَ الْمُحِيطَ الْهَادِئَ

كَانَ مِنَ الْمُتَوَقَّعِ أَنْ تَسْتَغْرِقَ الرِّحْلَةُ مِنَ الْيَابَانِ إِلَى أَمْرِيكَا وَاحِدًا وَعِشْرِينَ يَوْمًا، حَيْثُ سَتُلْقِي السَّفِينَةُ مَرَاسِيَهَا فِي سان فرانسيسكو فِي الثَّانِي مِنْ دِيسَمْبِرَ، وَتَسْتَغْرِقُ الرِّحْلَةُ مِنْ سان فرانسيسكو إِلَى نيويورك تِسْعَةَ أَيَّامٍ، وَهَذَا يَعْنِي أَنَّهُ أَمَامَ فيلياس فوج عَشَرَةُ أَيَّامٍ كَامِلَةٌ لِلْعَوْدَةِ إِلَى لَنْدَنَ قَبْلَ انْتِهَاءِ الْوَقْتِ الْمُحَدَّدِ، وَلَوْ كَانَتْ هُنَاكَ ذَرَّةُ قَلَقٍ تُخَالِجُ نَفْسَ فيلياس فوج، فَإِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَبْدُ عَلَى مَلَامِحِهِ عَلَى الْإِطْلَاقِ.

وَبِحُلُولِ الْيَوْمِ التَّاسِعِ، كَانَ فيلياس فوج قَدْ سَافَرَ حَوْلَ نِصْفِ الْعَالَمِ بِالضَّبْطِ، وَعَلَيْهِ الْآنَ السَّفَرُ حَوْلَ النِّصْفِ الْآخَرِ، وَلَمْ يَتَبَقَّ أَمَامَهُ سِوَى ثَمَانِيَةٍ وَعِشْرِينَ يَوْمًا فَقَطْ!

فِي هَذِهِ الْأَثْنَاءِ، كَانَ الْمُحَقِّقُ فيكس قَدْ حَصَلَ أَخِيرًا عَلَى مُذَكِّرَةِ إِلْقَاءِ الْقَبْضِ عَلَى فوج، وَالَّتِي كَانَتْ تَنْتَظِرُهُ عِنْدَ وُصُولِهِ إِلَى الْيَابَانِ. وَفِي الْوَاقِعِ، كَانَتِ الْمُذَكِّرَةُ عَلَى مَتْنِ الْبَاخِرَةِ «كارناتيك» الَّتِي كَانَ مِنَ الْمُفْتَرَضِ أَنْ يَكُونَ عَلَى مَتْنِهَا. وَبِالطَّبْعِ، أَصْبَحَتِ الْمُذَكِّرَةُ بِلَا فَائِدَةٍ الْآنَ؛ إِذْ إِنَّ فيلياس كَانَ فِي طَرِيقِهِ إِلَى أَمْرِيكَا، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ فوج فِي قَلْبِ الْأَرَاضِي الْبِرِيطَانِيَّةِ، فَإِنَّ فيكس لَيْسَ لَدَيْهِ السُّلْطَةُ لِإِلْقَاءِ الْقَبْضِ عَلَيْهِ.

اسْتَشَاطَ فيكس غَضَبًا: «حَسَنًا، سَتَظَلُّ هَذِهِ الْمُذَكِّرَةُ فَعَّالَةً فِي لَنْدَنَ، فَأَنَا عَلَى يَقِينٍ أَنَّ فيلياس فوج سَيُضْطَرُّ لِلْعَوْدَةِ إِلَى بِلَادِهِ فِي وَقْتٍ مَا.»

قَرَّرَ فيكس أَنْ يُلَاحِقَ فيلياس حَتَّى النِّهَايَةِ، وَلَكِنَّهُ تَقَوْقَعَ عَلَى نَفْسِهِ فِي كَابِينَتِهِ عَلَى مَتْنِ الْبَاخِرَةِ «جنرال جرانت» حَتَّى لَا يَعْلَمُوا بِوُجُودِهِ، كَمَا أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ أَنْ يُقَابِلَ باسبارتو وَيُضْطَرَّ إِلَى تَبْرِيرِ وُجُودِهِ عَلَى مَتْنِ السَّفِينَةِ.

وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعِ الْبَقَاءَ بِالدَّاخِلِ طَوَالَ الْوَقْتِ؛ فَفِي أَحَدِ الْأَيَّامِ، شَعَرَ أَنَّهُ بِحَاجَةٍ إِلَى اسْتِنْشَاقِ بَعْضِ الْهَوَاءِ الْمُنْعِشِ. مَا الْخَطَأُ فِي ذَلِكَ؟! وَبِمُجَرَّدِ أَنْ وَطِئَتْ قَدَمَاهُ سَطْحَ السَّفِينَةِ، وَجَدَ باسبارتو الَّذِي اتَّجَهَ إِلَيْهِ مُبَاشَرَةً وَلَكَمَهُ فِي أَنْفِهِ فَطَرَحَهُ أَرْضًا.

وَسَأَلَهُ فيكس وَهُوَ يُمْسِكُ أَنْفَهُ: «هَلِ اكْتَفَيْتَ بِهَذَا؟»

أَجَابَهُ باسبارتو: «فِي الْوَقْتِ الرَّاهِنِ، نَعَمْ.»

قَالَ فيكس: «إِذَنْ مِنْ فَضْلِكَ، دَعْنِي أَتَحَدَّثْ إِلَيْكَ لِلَحْظَةٍ، إِنَّهُ أَمْرٌ يَتَعَلَّقُ بِسَيِّدِكَ.»

وَافَقَ باسبارتو، رَغْمَ أَنَّهُ لَا يَزَالُ لَا يَثِقُ بِذَلِكَ الْمُحَقِّقِ، فَوَقَفَ فيكس عَلَى قَدَمَيْهِ وَذَهَبَ الرَّجُلَانِ وَجَلَسَا مَعًا عَلَى الْمَقَاعِدِ عَلَى ظَهْرِ السَّفِينَةِ.

قَالَ باسبارتو: «إِذَنْ أَنْتَ تَعْلَمُ الْآنَ أَنَّ سَيِّدِي رَجُلٌ شَرِيفٌ، وَتَخَلَّيْتَ عَنْ تِلْكَ الْفِكْرَةِ الْمَجْنُونَةِ أَنَّهُ لِصُّ الْبَنْكِ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟»

قَالَ فيكس: «بِالطَّبْعِ لَا.» فَرَفَعَ باسبارتو قَبْضَتَهُ مَرَّةً أُخْرَى وَهُوَ يَهُمُّ بِتَوْجِيهِ لَكْمَةٍ ثَانِيَةٍ؛ فَقَالَ فيكس «انْتَظِرْ! دَعْنِي أُكْمِلْ.» أَنْزَلَ الْخَادِمُ يَدَهُ، فَاسْتَطْرَدَ فيكس: «أَنَا الْآنَ دَاخِلَ اللُّعْبَةِ، فَالطَّرِيقَةُ الْوَحِيدَةُ لِلْقَبْضِ عَلَيْهِ هِيَ أَنْ يَكُونَ فِي إِنْجِلْتِرَا، وَالطَّرِيقَةُ الْوَحِيدَةُ لِعَوْدَتِكُمْ إِلَى إِنْجِلْتِرَا هِيَ أَنْ تُكْمِلُوا هَذَا السِّبَاقَ الْمَجْنُونَ حَوْلَ الْعَالَمِ، فَأَنَا أُدْرِكُ أَنَّنِي لَا أَسْتَطِيعُ إِيقَافَهُ؛ لِذَا سَأَفْعَلُ مَا بِوُسْعِي لِلْمُسَاعَدَةِ.»

لَمْ يَتَفَوَّهْ باسبارتو بِكَلِمَةٍ؛ فَتَابَعَ فيكس: «هَلْ نَحْنُ أَصْدِقَاءُ؟»

– «كَلَّا، لَسْنَا أَصْدِقَاءَ، وَلَكِنْ يُمْكِنُ أَنْ نَكُونَ حُلَفَاءَ. وَرَغْمَ ذَلِكَ يَجِبُ أَنْ أُحَذِّرَكَ بِأَنَّنِي سَوْفَ أَدُقُّ عُنُقَكَ عِنْدَ أَوَّلِ إِشَارَةٍ تَدُلُّ عَلَى أَنَّكَ سَتُكَرِّرُ مَا فَعَلْتَهُ فِي هونج كونج!»

قَالَ فيكس: «مُوَافِقٌ.» وَكَانَ يُدْرِكُ أَنَّهُ فِي مَوْقِفِ ضَعْفٍ.

بَعْدَ أَحَدَ عَشَرَ يَوْمًا، رَسَتِ الْبَاخِرَةُ «جنرال جرانت» فِي سان فرانسيسكو، وَبِذَلِكَ لَمْ يَكْسِبْ فيلياس فوج أَوْ يَخْسِرْ أَيَّ يَوْمٍ فِي رِحْلَتِهِ، وَقَدْ دَوَّنَ ذَلِكَ فِي دَفْتَرِ يَوْمِيَّاتِهِ.

ذَهَبَ فيلياس مُبَاشَرَةً إِلَى مَحَطَّةِ الْقِطَارِ لِيَعْرِفَ مَوْعِدَ الْقِطَارِ التَّالِي الْمُتَّجِهِ إِلَى مَدِينَةِ نيويورك، فَوَجَدَ أَنَّ مَوْعِدَهُ فِي السَّادِسَةِ مَسَاءً؛ مِمَّا يَعْنِي أَنَّهُ وعودا يُمْكِنُهُمَا أَنْ يَنَالَا قِسْطًا مِنَ الرَّاحَةِ فِي فُنْدُقِ «إنترناشونال هوتيل» لِبَقِيَّةِ الْيَوْمِ.

وَبَيْنَمَا اتَّجَهَ باسبارتو لِقَضَاءِ بَعْضِ الْمَهَامِّ، تَنَاوَلَ فيلياس وَعودا فَطُورًا شَهِيًّا، ثُمَّ ذَهَبَ فيلياس — مِثْلَمَا فَعَلَ فِي كُلِّ مِينَاءٍ رَسَا بِهِ — لِيَخْتِمَ جَوَازَ سَفَرِهِ، وَلَكِنَّ هَذِهِ الْمَرَّةَ

لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ أَيُّ أَحْدَاثٍ مُؤْسِفَةٍ، وَاسْتَقَلَّ الْجَمِيعُ الْقِطَارَ الْمُتَّجِهَ إِلَى نيويورك — وَمَعَهُمْ فيكس — فِي تَمَامِ السَّاعَةِ السَّادِسَةِ مِنْ ذَلِكَ الْمَسَاءِ.

عَلَى مَتْنِ الْقِطَارِ، اسْتَغْرَقَ الْمُسَافِرُونَ الْمُتْعَبُونَ فِي النَّوْمِ؛ فَعِنْدَمَا اسْتَقَلُّوا الْقِطَارَ كَانَ الظَّلَامُ قَدْ حَلَّ، وَمِنْ ثَمَّ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ الْكَثِيرُ لِيُشَاهِدُوهُ مِنَ النَّافِذَةِ. شَقَّ الْقِطَارُ طَرِيقَهُ مُسْرِعًا عَبْرَ كاليفورنيا، وَمُرُورًا بِساكرامنتو، ثُمَّ بَدَأَ يَعْبُرُ خِلَالَ جِبَالِ سييرانيفادا. وَكَانَتْ قُضْبَانُ السِّكَّةِ الْحَدِيدِيَّةِ تَلْتَفُّ عَبْرَ الْمَمَرَّاتِ، وَالدُّخَانُ الَّذِي يَتَصَاعَدُ مِنَ الْقِطَارِ يَتَطَايَرُ بَيْنَ الْأَشْجَارِ الضَّخْمَةِ.

وَفِي صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِي، وَبَعْدَ تَنَاوُلِ الْإِفْطَارِ، كَانَ الْمُسَافِرُونَ الْأَرْبَعَةُ يُحَدِّقُونَ خَارِجَ النَّافِذَةِ فِي الْمَنَاظِرِ الطَّبِيعِيَّةِ الْخَلَّابَةِ أَمَامَهُمْ، حَيْثُ كَانَتِ الْجِبَالُ تَصْطَفُّ فِي الْأُفُقِ فِيمَا وَرَاءَ الْمُرُوجِ. وَلَمْ يَمُرَّ وَقْتٌ طَوِيلٌ حَتَّى عَادَ فيلياس يُدَوِّنُ مُلَاحَظَاتِهِ فِي دَفْتَرِ الْيَوْمِيَّاتِ، بِهُدُوئِهِ الْمُعْتَادِ طَوَالَ الرِّحْلَةِ. وَقَبْلَ الْغَدَاءِ مُبَاشَرَةً، دَخَلَ قَطِيعٌ مِنَ الْجَامُوسِ عَلَى مَسَارِ خَطِّ السِّكَّةِ الْحَدِيدِيَّةِ؛ فَتَوَقَّفَ الْقِطَارُ وَانْتَظَرَ السَّائِقُ بِصَبْرٍ حَتَّى عَبَرَ الْقَطِيعُ، لَكِنَّ باسبارتو لَمْ يَسْتَطِعِ الْجُلُوسَ سَاكِنًا، فَأَخَذَ يَقْطَعُ عَرَبَاتِ الْقِطَارِ جِيئَةً وَذَهَابًا وَهُوَ يَتَسَاءَلُ لِمَاذَا لَا يَخْرُجُ أَحَدٌ لِإِبْعَادِ ذَلِكَ الْقَطِيعِ!

وَبِحُلُولِ مَسَاءِ الْيَوْمِ الثَّانِي، كَانُوا قَدْ عَبَرُوا إِلَى وِلَايَةِ يوتا، وَكَانُوا عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنَ مَدِينَةِ سولت ليك سيتي الْكُبْرَى، حَيْثُ كَانَتْ قَبَائِلُ الْمورمون تَسْتَوْطِنُ الْمِنْطَقَةَ.

فِي صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِي، كَانَ الطَّقْسُ فِي غَايَةِ الْبُرُودَةِ عِنْدَمَا خَطَا باسبارتو إِلَى الْخَارِجِ لِاسْتِنْشَاقِ بَعْضِ الْهَوَاءِ الْمُنْعِشِ، وَلَمْ يَتَوَقَّفْ تَسَاقُطُ الثُّلُوجِ، وَلَكِنْ كَانَتِ الشَّمْسُ سَاطِعَةً كَذَلِكَ. أَخَذَ الْقِطَارُ يَشُقُّ طَرِيقَهُ بِسُرْعَةٍ بَيْنَ الْمَزَارِعِ وَالْحُقُولِ الَّتِي تَنْمُو فِيهَا مَحَاصِيلُ الْقَمْحِ وَالذُّرَةِ فِي الْمَوَاسِمِ الْمُنَاسِبَةِ، وَكَانَتِ الْأَرْضُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مُغَطَّاةً بِطَبَقَةٍ رَقِيقَةٍ مِنَ الثُّلُوجِ. مَدَّ باسبارتو ذِرَاعَيْهِ لِأَعْلَى فَوْقَ رَأْسِهِ وَفَكَّرَ: «إِنَّهُ حَقًّا بَلَدٌ مُثِيرٌ لِلِاهْتِمَامِ.»

وَفِي تِلْكَ الظَّهِيرَةِ، تَوَقَّفَ الْقِطَارُ فِي مَدِينَةِ أوجدن، وَكَانَ مِنَ الْمُقَرَّرِ أَنْ يُغَادِرَ مُجَدَّدًا فِي غُضُونِ سِتِّ سَاعَاتٍ؛ مِمَّا أَتَاحَ لِلْمُسَافِرِينَ الْفُرْصَةَ لِاسْتِكْشَافِ مَدِينَةِ سولت ليك

سيتي، وَكَانَتِ الْمَدِينَةُ مُحَاطَةً بِسُورٍ بُنِيَ فِي عَامِ ١٨٥٣ مِنَ الطِّينِ وَالْحَصَى. تَجَوَّلَ الْمُسَافِرُونَ فِي الشَّوَارِعِ، وَتَأَمَّلُوا الْمَنَازِلَ الْمُرَبَّعَةَ فِي الْمَدِينَةِ، ثُمَّ عَادُوا إِلَى الْقِطَارِ.

وَبِمُجَرَّدِ أَنِ انْطَلَقَتْ صَافِرَةُ الْقِطَارِ وَبَدَأَتِ الْعَجَلَاتُ فِي التَّحَرُّكِ، نَظَرَ باسبارتو خَارِجَ النَّافِذَةِ فَرَأَى رَجُلًا طَوِيلًا يَرْتَدِي مِعْطَفًا طَوِيلًا دَاكِنَ اللَّوْنِ يَجْرِي عَلَى الرَّصِيفِ.

فَصَاحَ باسبارتو: «تَوَقَّفْ! تَوَقَّفْ!» وَبِالطَّبْعِ لَمْ يَتَوَقَّفِ الْقِطَارُ، فَرَكَضَ الرَّجُلُ أَسْرَعَ فَأَسْرَعَ حَتَّى قَفَزَ أَخِيرًا عَلَى الْمِنَصَّةِ الْخَلْفِيَّةِ لِلْقِطَارِ، فَابْتَسَمَ باسبارتو وَفَكَّرَ فِي نَفْسِهِ: «رُبَّمَا يَقُومُ ذَلِكَ الرَّجُلُ أَيْضًا بِجَوْلَةٍ حَوْلَ الْعَالَمِ!»

اتَّجَهَ الْقِطَارُ شَمَالًا مِنْ أوجدن إِلَى جِبَالِ روكي، وَكَانَ باسبارتو يَقْطَعُ الْقِطَارَ ذَهَابًا وَإِيَابًا؛ إِذْ إِنَّهُ كَانَ يَجِدُ صُعُوبَةً فِي الْبَقَاءِ هَادِئًا فِي مَكَانِهِ، وَكَذَلِكَ كَانَ فيكس لَا يُحِبُّ السَّفَرَ عَبْرَ الْجِبَالِ، فَلَقَدْ أَخَافَهُ ذَلِكَ قَلِيلًا. أَمَّا فيلياس، فَكَانَ بِالطَّبْعِ هَادِئًا تَمَامًا كَطَبِيعَتِهِ.

وَكَانَتِ الثُّلُوجُ لَا تَزَالُ تَنْهَمِرُ مِنَ السَّمَاءِ، فَتَسَاءَلَ باسبارتو فِي نَفْسِهِ: «لِمَاذَا لَمْ يَقُمْ سَيِّدِي بِهَذِهِ الْجَوْلَةِ فِي الصَّيْفِ، وَبِذَا لَمْ نَكُنْ لِنُوَاجِهَ مُشْكِلَةَ الطَّقْسِ السَّيِّئِ؟» ثُمَّ نَظَرَ خَارِجَ النَّافِذَةِ وَتَأَمَّلَ السَّمَاءَ الْغَارِقَةَ فِي الْغُيُومِ.

قَالَ فيكس: «إِنَّ السَّاعَاتِ تَمْضِي كَالدَّهْرِ عَلَى مَتْنِ الْقِطَارِ.»

قَالَ فيلياس: «نَعَمْ، وَلَكِنَّهَا تَمْضِي.»

فَقَالَ فيكس مُقْتَرِحًا: «يُمْكِنُنَا أَنْ نَلْعَبَ بَعْضَ الْجَوْلَاتِ مِنَ الْوَرَقِ.»

فَأَجَابَ فيلياس: «فِكْرَةٌ رَائِعَةٌ! لِنَلْعَبْ بريدج.»

وَهَكَذَا أَمْضَى الْجَمِيعُ سَاعَاتٍ طَوِيلَةً عَلَى هَذَا الْمِنْوَالِ؛ يَلْعَبُونَ الْوَرَقَ وَيَتَحَدَّثُونَ إِلَى بَعْضِهِمُ الْبَعْضِ وَيَتَنَاوَلُونَ الْإِفْطَارَ أَوِ الْغَدَاءَ أَوِ الْعَشَاءَ. وَكَانَ فيلياس مُحِقًّا؛ فَلَقَدْ مَرَّ الْوَقْتُ.

فَجْأَةً، انْطَلَقَتْ صَافِرَةٌ مُدَوِّيَةٌ وَتَوَقَّفَ الْقِطَارُ تَمَامًا.

قَالَ فيلياس: «رَجَاءً، اذْهَبْ وَانْظُرْ مَاذَا حَدَثَ يَا باسبارتو.»

هُرِعَ باسبارتو خَارِجًا مِنَ الْعَرَبَةِ، وَكَانَ هُنَاكَ مَجْمُوعَةٌ أُخْرَى مِنَ الرُّكَّابِ قَدْ تَجَمْهَرُوا. لَقَدْ أَوْقَفَ ضَوْءٌ أَحْمَرُ حَرَكَةَ الْقِطَارِ قَبْلَ بُلُوغِهِ أَحَدَ الْجُسُورِ، وَكَانَ سَائِقُ الْقِطَارِ وَالْمُحَصِّلُ يَتَحَدَّثَانِ مَعَ مَسْئُولِ الْإِشَارَةِ عَنْ سَبَبِ إِيقَافِ الْقِطَارِ.

فَقَالَ لَهُمَا: «إِنَّ الْجِسْرَ خَارِجَ الْخِدْمَةِ وَمُسْتَحِيلٌ عُبُورُهُ.»

وَهُنَا قَالَ الرَّجُلُ الَّذِي يَرْتَدِي الْمِعْطَفَ الْأَسْوَدَ الطَّوِيلَ وَيُدْعَى كولونيل بروكتور: «إِنَّنَا لَنْ نَظَلَّ هُنَا، أَلَيْس كَذَلِكَ؟ أَسَوْفَ نَقْبَعُ بَيْنَ هَذِهِ الثُّلُوجِ؟»

قَالَ الْمُحَصِّلُ: «قَطْعًا لَا، لَقَدْ أَرْسَلْنَا بَرْقِيَّةً لِقِطَارٍ آخَرَ لِمُلَاقَاتِنَا فِي مَدِينَةِ ميديسين باو فِي غُضُونِ سِتِّ سَاعَاتٍ.»

صَاحَ باسبارتو: «سِتِّ سَاعَاتٍ! سِتِّ سَاعَاتٍ!»

تَابَعَ الْمُحَصِّلُ: «نَعَمْ، سَنَسْتَغْرِقُ هَذَا الْوَقْتَ لِلْوُصُولِ إِلَى هُنَاكَ سَيْرًا عَلَى الْأَقْدَامِ.»

قَالَ باسبارتو: «سَيْرًا عَلَى الْأَقْدَامِ! كَمْ تَبْعُدُ تِلْكَ الْمَدِينَةُ؟»

قَالَ كولونيل بروكتور: «إِنَّهَا عَلَى بُعْدِ مِيلٍ وَاحِدٍ مِنْ هُنَا، لِمَاذَا سَنَسْتَغْرِقُ سِتَّ سَاعَاتٍ لِلْوُصُولِ إِلَى هُنَاكَ؟»

قَالَ الْمُحَصِّلُ: «حَسَنًا، إِنَّهَا عَلَى الْجَانِبِ الْآخَرِ مِنَ النَّهْرِ.»

سَأَلَ الكولونيل: «أَلَا يُمْكِنُنَا عُبُورُ النَّهْرِ عَلَى مَتْنِ قَارِبٍ؟»

أَجَابَ الْمُحَصِّلُ: «هَذَا مُسْتَحِيلٌ، فَالنَّهْرُ يَفِيضُ بِسَبَبِ الْأَمْطَارِ، فَيَجِبُ عَلَيْنَا السَّيْرُ عَشَرَةَ أَمْيَالٍ شَمَالًا حَتَّى يُمْكِنُنَا الْعُبُورُ.»

وَكَانَ الرُّكَّابُ جَمِيعًا مُنْزَعِجِينَ مِنْ فِكْرَةِ السَّيْرِ لِمَسَافَةِ عَشَرَةِ أَمْيَالٍ فِي الْأَمْطَارِ وَالْبَرْدِ وْالثُّلُوجِ. صَمَتَ الكولونيل لِدَقِيقَةٍ، ثُمَّ تَحَدَّثَ بِصَوْتٍ عَالٍ مُخَاطِبًا الْجَمِيعَ الَّذِينَ كَانُوا مَشْغُولِينَ فِي تَذَمُّرِهِمْ.

قَالَ: «انْتَظِرُوا، أَعْتَقِدُ أَنَّ هُنَاكَ طَرِيقَةً لِعُبُورِ الْجِسْرِ.»

قَالَ الْمُحَصِّلُ: «مَاذَا تَعْنِي؟»

أَجَابَ الكولونيل: «أَعْتَقِدُ أَنَّ لَدَيْنَا فُرْصَةً فِي عُبُورِ الْجِسْرِ إِذَا جَعَلْنَا الْقِطَارَ يَسِيرُ بِأَقْصَى سُرْعَتِهِ؛ فَإِذَا كُنَّا نَسِيرُ بِالسُّرْعَةِ الْقُصْوَى، فَقَدْ يَكُونُ لَدينا فُرْصَةٌ لِلْعُبُورِ قَبْلَ أَنْ يَنْهَارَ الْجِسْرُ تَمَامًا.»

كَانَ الرُّكَّابُ وَالسَّائِقُ مُتَحَمِّسِينَ لِلتَّجْرِبَةِ، وَكَانُوا عَلَى اقْتِنَاعٍ بِنَجَاحِ الْخُطَّةِ وَأَنَّهُمْ سَيَتَمَكَّنُونَ مِنَ الْعُبُورِ، حَتَّى مَنْ كَانَ مِنْهُمْ قَلِقًا بِشَأْنِ انْهِيَارِ الْجِسْرِ قَبْلَ أَنْ يَعْبُرُوا لَمْ يَتَفَوَّهْ بِشَيْءٍ، وَكَانَ باسبارتو خَائِفًا لَكِنَّهُ لَمْ يُعَبِّرْ عَنْ ذَلِكَ الْخَوْفِ. عَادَ الْجَمِيعُ عَلَى مَتْنِ الْقِطَارِ، وَسُرْعَانَ مَا بَدَأَ الْقِطَارُ يَتَحَرَّكُ مَرَّةً أُخْرَى.

انْطَلَقَتْ صَافِرَةُ الْقِطَارِ وَبَدَأَ يَنْطَلِقُ، ثُمَّ أَسْرَعَ أَكْثَرَ وَأَكْثَرَ؛ فِي الْوَاقِعِ، كَانَ يَسِيرُ بِسُرْعَةٍ جَامِحَةٍ حَتَّى بَدَا كَمَا لَوْ أَنَّهُ لَا يَسِيرُ عَلَى قُضْبَانٍ مُطْلَقًا! ثُمَّ عَبَرَ الْجِسْرَ! لَمْ تَسْتَغْرِقْ تِلْكَ الرِّحْلَةُ الْمَصِيرِيَّةُ سِوَى ثَانِيَةٍ وَاحِدَةٍ وَالْقِطَارُ يَطِيرُ مِنْ ضَفَّةِ النَّهْرِ إِلَى الْأُخْرَى، وَبَعْدَ ثَوَانٍ مَعْدُودَةٍ مِنْ مُرُورِ الْقِطَارِ بِأَكْمَلِهِ، تَهَاوَى الْجِسْرُ إِلَى الْمِيَاهِ أَسْفَلَهُ مُحْدِثًا ضَجَّةً شَدِيدَةً.

الفصل الرابع عشر

فيلياس وباسبارتو يُوَاجِهَانِ خَارِجِينَ عَلَى الْقَانُونِ عَلَى السِّكَكِ الْحَدِيدِيَّةِ

انْطَلَقَ الْقِطَارُ مُتَجَاوِزًا مَدِينَةَ فورت ساندرز، وَعَبَرَ شايَان باس إِلَى إيفنز باس؛ حَيْثُ صَعِدَ فيلياس وَباسبارتو إِلَى أَعْلَى ارْتِفَاعٍ وَصَلَا إِلَيْهِ مُنْذُ انْطِلَاقِهِمَا فِي هَذِهِ الرِّحْلَةِ الْمُذْهِلَةِ حَوْلَ الْعَالَمِ. اسْتَمَرَّ الْقِطَارُ فِي الْمُضِيِّ قُدُمًا وَعَبَرَ أَرَاضِيَ وايومينج وَكولورادو إِلَى نبراسكا؛ وَبَيْنَمَا كَانَ الْقِطَارُ يَشُقُّ طَرِيقَهُ، أَمْضَى الْمُسَافِرُونَ الْأَرْبَعَةُ وَقْتَهُمْ فِي لَعِبِ الْوَرَقِ.

وَبَيْنَمَا كَانَ الْقِطَارُ يَمْضِي فِي طَرِيقِهِ إِلَى أوماها، دَوَّى صَوْتُ اصْطِدَامٍ هَائِلٍ. تَوَقَّفَ الْقِطَارُ تَمَامًا عَلَى الْقُضْبَانِ، وَنَظَرَ جَمِيعُ الرُّكَّابِ فِي الْعَرَبَةِ إِلَى الْخَارِجِ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَسْتَطِيعُوا رُؤْيَةَ شَيْءٍ. وَفَجْأَةً، عَادَ الْقِطَارُ لِيَتَحَرَّكَ مُجَدَّدًا.

سَأَلَ باسبارتو: «مَاذَا حَدَثَ بِحَقِّ السَّمَاءِ؟» ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى فيلياس وَقَالَ: «سَأَذْهَبُ لِأَتَفَقَّدَ الْأَمْرَ يَا سَيِّدِي.»

خَرَجَ باسبارتو مِنَ الْعَرَبَةِ وَسَارَ نَحْوَ مُقَدِّمَةِ الْقِطَارِ، وَكَانَ عَدَدٌ مِنَ الرُّكَّابِ قَدْ خَرَجَ كَذَلِكَ وَمِنْ بَيْنِهِمْ كولونيل بروكتور، وَكَانُوا يَسْمَعُونَ ضَجِيجًا مِنْ أَحَدِ جَانِبَيِ الْقِطَارِ، ثُمَّ بَدَأَ الرُّكَّابُ فِي الصُّرَاخِ.

وداخِلَ الْعَرَبَةِ، شَحُبَ وَجْهُ عودا عِنْدَمَا سَمِعَتِ الصِّيَاحَ وَالضَّجِيجَ بِالْخَارِجِ، وَسَأَلَتْ: «مَا الَّذِي حَدَثَ فِي رَأْيِكَ؟»

أَجَابَ الْمُحَقِّقُ فيكس: «أُرَاهِنُ أَنَّ هُنَاكَ خَارِجِينَ عَنِ الْقَانُونِ قَدْ هَاجَمُوا الْقِطَارَ!»

وَضَعَ فيلياس أَوْرَاقَهُ بِهُدُوءٍ وَقَالَ: «فِي هَذِهِ الْحَالَةِ، قَدْ تَكُونُ أَمَامَنَا مَعْرَكَةٌ!» ثُمَّ اسْتَطْرَدَ عِنْدَمَا رَأَى الصَّدْمَةَ عَلَى وَجْهِ عودا: «وَلَكِنْ دَعُونَا نَأْمُلُ أَلَّا تَصِلَ الْأُمُورُ لِهَذَا الْحَدِّ. عَلَيْكِ الْبَقَاءُ هُنَا فِي مَأْمَنٍ يَا عودا، أَغْلِقِي ذَلِكَ الْبَابَ بِإِحْكَامٍ وَلَا تَدَعِي أَحَدًا يَدْخُلُ!»

وَكَمَا اتَّضَحَ بَعْدَ ذَلِكَ، فَقَدْ هَاجَمَتْ عِصَابَةٌ قِوَامُهَا مَا يَقْرُبُ مِنْ مِائَةِ رَجُلٍ الْقِطَارَ، وَقَدْ قَفَزَ الْعَدِيدُ مِنْهُمْ إِلَى الدَّاخِلِ وَالْقِطَارُ يَتَحَرَّكُ! وَكَانُوا مُلَثَّمِينَ وَمُدَجَّجِينَ بِالسِّلَاحِ، وَكَانُوا قَدْ دَاهَمُوا عَرَبَةَ سَائِقِ الْقِطَارِ وَأَفْقَدُوهُ الْوَعْيَ، وَأَخَذُوا يَتَنَقَّلُونَ مِنْ عَرَبَةٍ لِأُخْرَى وَهُمْ يَسْلُبُونَ كُلَّ مَا يُمْكِنُهُمْ مِنَ الْمُسَافِرِينَ الْمَسَاكِينِ.

سَارَ الْقِطَارُ أَسْرَعَ فَأَسْرَعَ بِدُونِ سَائِقٍ لِلتَّحَكُّمِ فِيهِ، وَإِذَا لَمْ يَتَوَقَّفِ الْقِطَارُ فَحَتْمًا سَيَصْطَدِمُ بِشَيْءٍ وَيَتَحَطَّمُ. عِنْدَمَا اكْتَشَفَ باسبارتو مَا يَحْدُثُ، عَادَ هُوَ وَالكولونيل بروكتور سَرِيعًا لِلْمُسَاعَدَةِ فِي الْمَعْرَكَةِ، وَكَانَ هُنَاكَ الْعَدِيدُ مِنَ الرِّجَالِ عَلَى مَتْنِ الْقِطَارِ يَتَعَارَكُونَ بِالْفِعْلِ مَعَ قَاطِعِي الطَّرِيقِ، وَاشْتَبَكَ باسبارتو فِي الْقِتَالِ فَوْرًا بِتَسْدِيدِ اللَّكَمَاتِ وَالرَّكَلَاتِ مُسْتَخْدِمًا كُلَّ قُدْرَاتِهِ الْبَهْلَوَانِيَّةِ. وَكَانَ الْكُولُونِيل بروكتور يَتَمَتَّعُ بِقَبْضَةٍ قَوِيَّةٍ، وَقَدْ صَرَعَ عَدَدًا مِنْ قَاطِعِي الطَّرِيقِ بِيَدَيْهِ الْعَارِيَتَيْنِ!

وَفِي خِضَمِّ الْمَعْرَكَةِ، وَوَسْطِ تَطَايُرِ الْأَذْرُعِ وَالْقَبَضَاتِ هُنَا وَهُنَاكَ، لَاحَظَ باسبارتو ثَلَاثَةً مِنْ قُطَّاعِ الطُّرُقِ يُحِيطُونَ بِالْمُحَصِّلِ الْمِسْكِينِ، وَصَرَخَ الْمُحَصِّلُ وَهُوَ يَسْقُطُ أَرْضًا: «إِذَا لَمْ يَتَوَقَّفِ الْقِطَارُ عِنْدَ مَحَطَّةِ «فورت كيارني»، فَسَوْفَ نَهْلِكُ جَمِيعًا! سَيَتَحَطَّمُ الْقِطَارُ! سَيَتَحَطَّمُ الْقِطَارُ!»

فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، كَانَ فيلياس قَدْ انْضَمَّ إِلَى الْمَعْرَكَةِ؛ بَلْ وَكَانَ بِجَانِبِ الْمُحَصِّلِ، فَسَدَّدَ لَكْمَةً قَوِيَّةً لِأَنْفِ أَحَدِ قُطَّاعِ الطَّرِيقِ وَقَالَ: «سَيَقِفُ إِذَنْ!» وَاتَّجَهَ مُسْرِعًا إِلَى مُقَدِّمَةِ الْقِطَارِ، وَلَكِنَّ باسبارتو أَوْقَفَهُ وَقَالَ: «ابْقَ أَنْتَ يَا سَيِّدِي! سَوْفَ أَذْهَبُ أَنَا.»

لَمْ يَكُنْ لَدَى فيلياس وَقْتٌ لِيُوقِفَهُ، حَيْثُ قَفَزَ أَحَدُ أَفْرَادِ الْعِصَابَةِ عَلَى ظَهْرِهِ وَبَدَأَ يَجْذِبُهُ أَرْضًا.

انْزَلَقَ باسبارتو مِنَ الْعَرَبَةِ وَزَحَفَ تَحْتَ الْقِطَارِ الْمُتَحَرِّكِ، وَبِالِاعْتِمَادِ عَلَى خِبْرَتِهِ كَبَهْلَوَانٍ، تَعَلَّقَ بِالسَّلَاسِلِ وَسَحَبَ نَفْسَهُ بِاسْتِخْدَامِ الْفَرَامِلِ، وَزَحَفَ مِنْ عَرَبَةٍ لِأُخْرَى حَتَّى وَصَلَ إِلَى عَرَبَةِ الْقِيَادَةِ.

وَبِكُلِّ مَا يَمْلِكُ مِنْ قُوَّةٍ، تَمَكَّنَ باسبارتو مِنْ سَحْبِ سِلْسِلَةِ الْأَمَانِ مِنْ عَرَبَةِ الْقِيَادَةِ، وَرَأَى الْعَرَبَةَ وَهِيَ تَنْفَصِلُ عَنْ بَاقِي الْقِطَارِ، ثُمَّ بَذَلَ مَا فِي وُسْعِهِ لسَحْبِ الْفَرَامِلِ. وَأَخِيرًا، تَوَقَّفَتْ بَاقِي عَرَبَاتِ الْقِطَارِ تَمَامًا أَمَامَ مَحَطَّةِ فورت كيرني، بَيْنَمَا انْطَلَقَتْ عَرَبَةُ الْقِيَادَةِ وَحْدَهَا.

كَانَ الْجُنُودُ فِي الْحِصْنِ قَدْ سَمِعُوا الشَّغْبَ، وَكَانُوا عَلَى أُهْبَةِ الِاسْتِعْدَادِ لِمُوَاجَهَةِ قُطَّاعِ الطَّرِيقِ، وَلَكِنْ عِنْدَمَا رَأَى أَفْرَادُ الْعِصَابَةِ الْجُنُودَ وَهُمْ مُصْطَفُّونَ وَمُسْتَعِدُّونَ بِأَسْلِحَتِهِمْ لِإِطْلَاقِ النِّيرَانِ، تَرَكُوا الْقِطَارَ، وَقَفَزُوا عَلَى خُيُولِهِمْ، وَلَاذُوا بِالْفِرَارِ.

وَبَعْدَ أَنْ أَصْبَحَ الْمَوْقِفُ آمِنًا، غَادَر عودا وَفيلياس وَفيكس الْقِطَارَ وَوَقَفُوا عَلَى الرَّصِيفِ، ثُمَّ صَاحَتْ عودا: «أَيْنَ باسبارتو؟ إِنَّهُ لَيْسَ هُنَا!»

حَاوَلَ فيلياس تَهْدِئَتَهَا، وَلَكِنَّهُ عَلِمَ فِيمَ كَانَتْ هِيَ وَفيكس يُفَكِّرَانِ؛ لَقَدِ اخْتَطَفَتِ الْعِصَابَةُ باسبارتو! وَبَدَأَتْ عودا فِي الْبُكَاءِ.

إِذَا كَانَ خَادِمُ فيلياس سَجِينًا لَدَى الْخَارِجِينَ عَلَى الْقَانُونِ، فَعَلَيْهِ إِنْقَاذُهُ، وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ خَيَارٌ آخَرُ.

فَقَالَ: «لَا تَقْلَقِي يَا عودا، سَأَعْثُرُ عَلَى باسبارتو حَيًّا أَوْ مَيِّتًا.»

بَكَتْ عودا وَهِيَ تُغَطِّي وَجْهَهَا بِيَدَيْهَا: «يَا إِلَهِي! فيلياس!»

أَصَرَّ: «حَيًّا! إِذًا ذَهَبْنَا فَوْرًا.» اسْتَدَارَ فيلياس وَرَأَى قَائِدَ الْحِصْنِ يَقِفُ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْهُ، فَنَادَى عَلَيْهِ: «أَيُّهَا الْقَائِدُ!»

اسْتَدَارَ الْقَائِدُ نَحْوَهُ، فَقَالَ فيلياس: «لَقَدِ اخْتَطَفَ قَاطِعُو الطُّرُقِ خَادِمِي يَا سَيِّدِي، وَأَعْتَقِدُ أَنَّهُمْ قَد اخْتَطَفُوا بَعْضَ الرُّكَّابِ كَذَلِكَ؛ يَجِبُ مُطَارَدَتُهُمْ!»

قَالَ الْقَائِدُ: «هَذِهِ مُخَاطَرَةٌ شَدِيدَةٌ يَا سَيِّدِي، فَرُبَّمَا يَكُونُونَ قَدْ عَادُوا بِهِمْ إِلَى أركنساس، وَأَنَا لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَتْرُكَ الْحِصْنَ بِدُونِ حِمَايَةٍ.»

قَالَ فيلياس: «حَسَنًا، إِذَنْ سَأَذْهَبُ بِمُفْرَدِي.»

صَاحَ فيكس: «بِمُفْرَدِكَ! هَلْ سَتَذْهَبُ لِمُطَارَدَةِ قَاطِعِي الطَّرِيقِ بِمُفْرَدِكَ؟»

قَالَ الْقَائِدُ: «كَلَّا، لَنْ أَسْمَحَ بِذَلِكَ، سَأُعْطِيكَ ثَلَاثِينَ مُتَطَوِّعًا لِيَذْهَبُوا مَعَكَ.» ثُمَّ اسْتَدَارَ إِلَى قُوَّاتِهِ وَقَالَ: «أَيُّهَا الرِّجَالُ! أَحْتَاجُ إِلَى ثَلَاثِينَ مُتَطَوِّعًا مِنْكُمْ لِلذَّهَابِ مَعَ هَذَا الرَّجُلِ الشُّجَاعِ لِإِنْقَاذِ الرُّكَّابِ الَّذِينَ اخْتَطَفَهُمْ قَاطِعُو الطَّرِيقِ، مَنْ سَيَذْهَبُ مَعَهُ؟»